في تشريح طائفيّة الحراك السوريّ

□ حسام جزماتي

في أول ردّ فعلٍ رسميّ على الأحداث السوريّة، ظهرتْ مستشارةُ الرئيس، بثينة شعبان، مساءَ الخميس ٢٤ آذار ٢٠١١، في مؤتمرٍ صحفيٍّ مرتبك، واتّهمتْ أطرافًا خارجيّةً بالوقوف وراء هذه التحرّكات، بغية استهدافِ أمن سوريا ووحدتها واستقرارها و«التعايشِ الجميل» بين مختلف طوائفها.

أمّا على المقلب الآخر، فقد كانت الإشارةُ أبكر. فمنذ الشرارة الأولى لانطلاق الحراك السوريّ، حرص الشابُّ الذي صوّر ونشر على الإنترنت مظاهرةَ سوق الحميديّة بدمشق، في ١٥ من الشهر نفسه، على القول مواكبًا للتسجيل: «نحن علويّون وسنّةٌ ومن كلّ أطياف سورية.» وفضلاً عن اللهجة المميّزة، بيّن الشابُّ بوضوح: «أحكي باسم الطائفة العلويّة بكلّ الشام، بكلّ سوريا..» وبينما كان زملاؤه يتنقّلون في الهتاف بين «الله، سورية، حريّة وبس،» و«سلميّة، سلميّة،» كان يختم كلامَه بالدعوة إلى مظاهرةٍ لاحقةٍ في اليوم نفسه: «بعد صلاة العصر في محيط الجامع الأمويّ.»[1]

تقول هاتان الحادثتان، كلٌّ على حدة، الكثيرَ. غير أنهما تقولان معًا إنّ الهاجس الطائفيَّ ملازمٌ للحراك السوريِّ منذ البداية.

(١) الفيديو على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=VNeFs0nQXo0.

فالنظـام، مـن جهتـه، دأب على طمـس الحديث عن المسـألة الطائفيّة تحت شـعار «المساواة التامّة بين المواطنين،» وتحت طائلة السـجن بتهمة «إثارة النعـرات الطائفيّة» لمن يجرؤ على الكلام.[٢] أقصـى ما يمكن أن يُسـمحَ به من تنـاولٍ علنيٍّ لهذه المسـألة كان كلامًا عامًّا عـن «التعايش الجميـل» بين طوائفَ مبهمـةٍ تُمنع تسـميتُها؛ فإنْ لـم يكن من ذلك بدٌّ، فالمسـلمون والمسـيحيّون هـم المثـالُ الوحيـدُ المسـموحُ بذكره، والشـيخُ والقسّـيسُ حاضران دومًا لالتقاط الصور التذكاريّة المشتركة.

كانت المسألة الطائفيّةُ عورةَ النظام التي بالغ في إخفائها.

أمّا على الضـفّة الأخرى، فقد داعبتْ أحـلامُ الحريّة والكرامة مخيّلات عددٍ من الشـبّان والشـابّات، الذيـن كان تفاعلُهم مع الربيـع العربـيّ يتصـاعد مع توالـي محطّاتـه المتلاحقة، من تونـس إلـى مصـر فليبيـا. وكان هـؤلاء طلابًا جامعيّيـن أو ما يشـبه ذلك من أبنـاء الطبقة الوسـطى، من طوائـفَ متعدّدة، اتفقوا على الخروج فـي أول مظاهرةٍ منذ عقود، وهي مظاهرةُ سـوق الحميدية المشـار إليها أعلاه، مؤسّسين لزلزالٍ ربّما لم يتخيّلـوا حجمَه. فقد تتالت المظاهراتُ واتّسـعتْ، وانتقلتْ من محافظةٍ إلى أخرى، على إيقاع اندلاع انتفاضـةٍ شعبيّةٍ حقيقيّةٍ في درعا، وعلى إيقـاع القتل الذي ارتفعتْ معدّلاتُه باطّراد منذ ذلك الحين.

ولمـا كان تصـاعدُ الاحتجاجـات وانتشـارُها عفويًّـا، ولم تكن لهـا قيادةٌ مركزيّـةٌ، ولا روابطُ كافيةٌ بين ناشـطي التظاهر في ذلـك الوقت، واحتاجت إلى ممثّلين لها يعبّرون عن مطالبها في وسائل الإعلام وفي أروقة السياسـة الخارجيّة والدوليّة لاحقًا؛ فقـد تلقّفَ هذه الاحتجاجـاتِ مثقفون ومعارضـون في الداخل والخارج، تولّوْا تمثيلَها في البداية، ثم قيادتَها السياسيّة، فتشكّل «المجلسُ الوطنيُّ السـوريُّ» وسـواه من الهيئـات والتجمّعات.

وبالنظر إلى المسألة الطائفيّة، كان معظمُ هؤلاء ممّن لا يعيرون هذا الموضـوعَ اهتمامًا كبيرًا، نظرًا إلـى تحدّرهم من خلفيّاتٍ يسـاريّة، وتبنّيهم تقاليدَ تعتبر تناولَه عيبًـا ثقافيًّا ووطنيًّا. وقد خاض هؤلاء سـجالاتٍ كثيرةً على الفضـائيّات، وفي المؤتمرات واللقاءات السياسـيّة، منافحيـن عن وطنيّة الحـراك ومدنيّته وبعده عن الطائفيّة. لكنّ الواقع كان يسير في اتّجاهٍ آخر.

فالحـقّ أنّ الاحتـكاكات الطائفيّـة لـم تتأخّر عن الحضـور في بانياس، ثم في جبلة واللاذقية، فحمص، منذ أسـابيع الحراك الأولى. وما بدأ استفزازًا أو تحرّشًا لفظيًّا، سرعان ما تحوّل إلى صدام حين ثارت ثائرةُ «شبيحة» محليّين قرّروا التطوّع بمشوارٍ سـريعٍ لتأديـب المتمرّدين. وكانـت الهويّةُ الطائفيّـة للطرفين واضحـةً. غير أنّ ذلك «المشوار» طال كثيرًا، وبعضُهم لم يرجعْ منـه، وما كان نزاعَ قرًى متجاورةٍ (أو أحياء «متعايشـة») تحوّل إلى صراعٍ دمويٍّ شرسٍ رفع الغطاءَ عن شرخٍ وطنيٍّ عميقٍ تزداد هوّتُـه غورًا وخطـورةً يومًا بعد يوم. أمّا مـا كان مناكفةً كلاميّةً محدودةً بين السوريّين، فقد صار موضوعَ حديث وزير خارجيّة روسـيا، سـيرغي لافروف، حين بـرّر دعمَ بلاده لنظام الأسـد بخشيتها من قيام «نظامٍ سنيٍّ»[٣] قد يضطهد الأقليّات.

وتصاعدت الحدّةُ الطائفيّة بشكلٍ غير مسبوق. فمن جهة، عمل النظام على رصّ صفوف الطائفة العلويّة حوله، مستغلًّا مخاوفَ تاريخيّةً وأسـاطيرَ شفويّةً عن مسـتقبلٍ مظلمٍ ينتظرها، تُلاقي فيه «الذبح،» الأمرُ الذي حرّض اسـتجاباتٍ هيسـتيريّةً تفسّـر كثيرًا ممّا نشـاهده اليوم من قسـوةٍ مفرطةٍ و«ذبحٍ اسـتباقيّ.» كمـا حاول اسـتثارة مخـاوفَ تقليديّـةٍ أقـلّ حدّةً عنـد الدروز والمسيحيّين والإسماعيليّين، وتقديم نفسه ـ برسائلَ مضمرةٍ ـ حاميًا للأقليّات، فنجح بنسـبٍ متفاوتة. أما لمؤيّديه السنّة فقد قدّم روايته الرسميّة عن الأحداث من دون كبير اهتمام.

ومـن الجهة الأخرى، كان تحوّلُ الحراك السـوريّ المحدود ذي الملمـح النخبـويّ إلى ثورةٍ شـعبيّةٍ قد غيّر مـن طبيعته كثيرًا. وكانت القاعدة المتوسّـعة كلَّ يـوم، بدخول قرًى وبلداتٍ وأحياءٍ ومـدنٍ إلى قائمـة المحتجّيـن، تضـغط باطّرادٍ علـى الواجهة السياسيّة للثورة، وبدأ أصحابُ ربطات العنق يفقدون مركزيّتهم لصالح قادة ميدانيّين. وبدأت الجماهير تفرض خطابَها، الذي كان الحسُّ الطائفيُّ إحدى أبرز سـماته، ولكنّ الياقات البيض تجاهلتْه أو تسـتّرتْ عليه حفاظًا على صـورةٍ رومانسـيّةٍ للثورة تحاول تسويقَها لدى المسؤولين الغربيّين.

لقد باتت المؤشّـرات على تنامي الحسّ الطائفيّ لدى الثائرين كثيرةً جدًّا. ففضلًا عن التقارير الصحفيّة الأجنبيّة التي يتّهمها بعضُنا بالبحث عن الإثارة وتنميط الشرقيّين، فإنّ تقاريرَ متّزنةً لمراكز أبحاثٍ مرموقة، وحصائل جهودٍ استخباريّةٍ تتسرّب من هنا أو هناك، علاوةً على المعاينات المباشرة، تُجمع على بروز حسٍّ طائفيٍّ سـنّيٍّ عارمٍ لدى الثـوّار. وأول مـا يُلاحظ هنا هو أنّ هـذا الحسّ موجّهٌ إلى العلويّين والشـيعة الجعفريّين، لا إلى الأقليّة الإسـماعيليّة التي نأت بنفسها عمليًّا عن «طرفي» النزاع كلّما ازدادت حدّته: فتاريخُها الطويلُ مع السـنّة لا يشجّعها على الوقوف إلى جانبهم في ما صـار يبدو ـ بصـورةٍ متعاظمةٍ ـ أنّه ثورتُهم الخاصّـة؛ وتاريخُها القريبُ من الصراع مع العلويّين لا يدفعهـا إلى الوقـوف معهم في ما بـات يبدو ـ يومًـا بعد يوم ـ أنـه محرقتهم الخاصّـة. أمّـا الدروز فقد انكفأ قسـمٌ كبيرٌ من شارعهم التقليديِّ عن خطابيّةٍ وطنيّةٍ متذمّرةٍ من السلطة، إلى مواقعَ طائفيّةٍ يراودها رُهابُ السـنّة، سمحتْ للنظام بأن ينظّمَ

---

(٢) وُجّهتْ هذه التهمة إلى عددٍ كبيرٍ من الناشطين السياسيّين. ويرى كثيرون أنّ سبب دخول ميشيل كيلو السجن (٢٠٠٦ - ٢٠٠٩) لم يكن بسبب نشاطاته في «ربيع دمشق» وما تلاه، وإنما بسبب مقال يشير إلى هذه المسألة، بعنوان «نعوات سورية.»

(٣) http://arabic.rt.com/news_all_news/analytics/68807/.

ـ المسألة الطائفية في سوريا ـ

ثمة ثلاثةُ أنواع من الطائفية في الحراك السوري، يعبّر عنها: التقابل السنّي/العلوي، والسني/الشيعي، والسنّي/«الرافضي.»

في صفوفهم لجانًا شعبيّةً (شبّيحة) تولّت قمعَ مظاهراتٍ قام بها دروزٌ في السويداء وجوارها. وما لم يقم هؤلاء الشبّيحة المحليّون بالاحتكاك بجوارهم من المناطق «السنّيّة» الثائرة ـ كما حصل أحيانًا في ريف دمشق ـ فلا خطاب طائفيًّا واضحًا ضدَّ الدروز في أوساط الثوّار.

تقودنا هذه الملاحظةُ إلى تحديد ملمحٍ أساسيٍّ للطائفيّة في الحراك السوريّ، وهو أنّها طائفيّةُ صراعٍ أرضيٍّ واقعيّ. وسيفيد هنا أن نميّز بين ثلاثة أنواعٍ من هذه الطائفيّة:

أولاً ـ طائفيّة سياسيّة محليّة، يعبّر عنها التقابلُ السنّيّ/العلويّ. وهي طائفيّةٌ تجد جذورَها في سنين طويلةٍ من التمييز الذي مارسه النظام، الذي كان أغلبُ رجالاته الفاعلين من العلويّين، وما تبع ذلك من حيازة أقرباء هؤلاء ومعارفهم قسطًا من النفوذ والسلطة، في بلدٍ يُعدُّ النفوذ فيه مرادفًا للقدرة على حفظ الكرامة، فضلاً عن أفضليّة النفاذ إلى سبل العيش (من أقلّ الوظائف الحكوميّة شأنًا إلى صفقات الفساد الكبيرة).

يستند هذا النمط من الطائفيّة إلى تراثٍ متبادلٍ من الحذر أو الكره، تناوب عليه السنّةُ والعلويّون تاريخيًّا في مناطق التماس الطبيعيّة، أي القرى المتجاورة على الشريط الساحليّ الممتدّ إلى أرياف حمص وحماة. ولكنّه شهد تبدّلًا في خطّه الجغرافيّ بانتقال العلويّين من السكن في قراهم إلى تأسيس أحياء في مدن الساحل وحمص، مع تقدّم وسائطِ النقل، وموجةِ الهجرة العالميّة من الأرياف إلى المدن بحثًا عن متع الحياة الحديثة، وبالتوازي مع انخراطهم في الحياة العامّة السوريّة وعلى صعيد الوظائف الحكوميّة. ولقد كان لهذا الانخراط أن يؤدّي وظيفته الإدماجيّة، أو أن يقف عند حدودِ النفورِ المتبادل بين أهل المدن والمهاجرين إليها من الأرياف (ولاسيّما عندما تكون هذه المدن «سنّيّةً» محافظةً، ويكون القادمون إليها مختلفين عنها في قضايا وسلوكاتٍ اجتماعيّةٍ تراها مركزيّةً مثل عدم التزام النساء بالحجابِ وشيوع تعاطي المشروبات الكحوليّة)، لولا السلطة وطريقة ممارستها. فالسلطة هي التي صعّدت الأمور إلى حال من الصراع الخفيّ؛ بالإضافة إلى أنّها نقلتْه معها إلى دمشق، مركزِ النفوذ والعمل والثروة.

في عاصمة الأمويّين سكن ضبّاطٌ كبارٌ في أحياءٍ غنيّةٍ كانت حكرًا على عائلات وجيهة، ونشأتْ أحياءٌ نظاميّةٌ وأخرى مخالفةٌ كانت تستوعب المهاجرين الجدد من دون رقابةٍ عمرانيّةٍ تُذكر. وفي ريفها توسّعت الثكناتُ عبر استملاك أراضٍ زراعيّةٍ بقوّة القانون الاشتراكيّ، كما أقيمت تجمّعاتٌ سكنيّةٌ لصغار الضباط ومتوسّطيهم. وفي سوق العمل كانت المنافسةُ تنتهي لصالح الوافدين الجدد، أو بمحاصصةٍ إلزاميّةٍ يضطرُّ إليها التاجر الدمشقيُّ الشهير.

ولكنْ خلافًا لتقدير شائع، لم يؤدِّ الاحتكاكُ والتعارف إلى الانفتاح، بل إلى مزيدٍ من الانكماش والعداء المكظوم في خطوط التماسّ المستجدّة. وبخلاف تقديرٍ شائعٍ آخر، فإنّ هذا النمط من الطائفيّة ليس مرتبطًا بالدين بالضرورة، بل قد ينتظم في صفوفه غيرُ متديّنين، أو علمانيّون، أو ملحدون؛ وقد يضمُّ مثقفين وإعلاميّين قادتْهم تجاربُ شخصيّةٌ إليه، ومسؤولين سنّةً سابقين أو حاليّين.. إلخ. إنّه صراعٌ أرضيٌّ إثنيٌّ بين جماعتين على موارد النفوذ والسلطة والثروة، ولذلك فهو موجّهٌ إلى الجماعة المستأثِرة بها. وقد يتعدّى هذا النمطُ من الطائفيّة العلويّين إلى أبناء أقليّاتٍ أخرى، كالدروز والإسماعيليّين، بوصفهم ـ في نظر كثيرٍ من السنّة ـ شركاءَ ثانويّين في سلطة الأقليّات التي صعدتْ مع حكم البعث منذ ١٩٦٣؛ لكنّه قد يضمُّ دروزًا وإسماعيليّين بسبب هذه «الثانويّة» نفسها.

حين قامت الثورة، كانت مناطقُ التماسّ هذه، الأصليّة والمستجدّة، تربةً خصبةً لمعاداة النظام بوصفه «نظامًا علويًّا،» فشاركتْ بشكلٍ فاعلٍ فيها (بانياس، حمص، أقسام من ريفيْ دمشق واللاذقية)، أو عانت ضبطًا أمنيًّا شديدًا لمنعها من الحركة (اللاذقية وطرطوس وجبلة ودمشق). أما عمومُ العلويّين فاعتبروا الأحداثَ خطرًا يتهدّد وجودَهم، لا وجودَ النظام، فأسهم بعضُهم ـ حيث وُجدوا ـ بقسطٍ وافرٍ من أعمال التشبيح؛

بـل كانوا يأخذون علـى النظام «رخاوته» قبل لجوئه في الأشـهر الأخيرة إلى «الحسم» مستخدمًا أشدَّ أنواع القوة الحربيّة فتكًا.
بالطبع، حاول عددٌ قليلٌ جدًّا من المثقفين والناشـطين العلويّين أن يقفـوا فـي وجه هـذا التيّار العاصـف، لكـنّ جهودهم ذهبتْ أدراجَ الرياح. وفضـلًا عن دخولهم المعتقلات، لاشـتراكهم في نشاطاتٍ معارضة، فقد عانى بعضهم نبذًا اجتماعيًّا ربما شارك فيه أفرادُ أسـرته الأقربون، بوصـفه خائنًا وحليفًـا للذبّيحة.(٤)
أما رسـائل «التطميـن» التي دأب معارضـون علـى توجيهها إلى «الطائفة الكريمة» فكان مصيرُها سلّةَ مهملات الذهن، بوصفها محاولةً ماكرةً للاستدراج.
هـذا الموقف المتصـلّب والدمـويّ أعاد تفعيـلَ طائفيّةٍ سـنّيّةٍ مؤسّسـةٍ على عقودٍ طويلـةٍ من التمييز، وأدخـل فيها أفرادًا لم يكونوا يأبهون لها بشـكلٍ جدّيٍّ، وحمّلهـا بالرغبات الثأريّة التي تتعاظم كلما تزايد الدمُ. وشـيئًا فشـيئًا، صـار أحدُ الشعارات الرئيسـة للثورة، وهـو هتاف «واحد واحد واحد، الدم السـوري واحـد،» يخبو، ليتقدّمَ شـعار «الدم السـنّي واحـد» الذي رفعتْه إحدى القنوات المتخصّصة بالسجال مع الشيعة.

ثانيًا ـ طائفيّة سياسـيّة إقليميّة، يعبّرَ عنها التقابُل السـنّيّ/الشـيعيّ. وهي ضـعيفةُ الجذور في سوريا الحديثة، بحكم ندرة وجود الشـيعة (الجعفريّة، الاثنيّ عشريّة) واقتصاره على قرًى متناثـرةٍ في محافظاتٍ مختلفة. على أنّ «اسـتيراد» هذا النمط من الطائفيّة يرجع إلـى الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة: إذ عندما أيّد الرئيس حافظ الأسـد الطرفَ الإيرانيَّ في هذا النزاع، بدا الموقفُ غريبًا لعموم السـوريّين، ولاسيّما في المناطق الشرقيّة من سورية، حيث ترتبط العشـائرُ والعائلاتُ بصلاتٍ قربى مع العراقيين، ويجد كثيرٌ من السـوريّين في صـدّام حسين بطلَهم ضدَّ «الفرس المجوس.»
وكان لأجهزة الأمن السوريّة شبهاتٌ خاصّةٌ بكلّ منطقة، وكانت تهمـة الانتماء إلـى البعث العراقيّ أشـيعَ التهم فـي مدينة دير الزور وما يتبع لها، وفي عموم المنطقة الشـرقيّة. ولكنّ صـدّام حسين أُعدم، بعد أن تعرّض لخيانة حلفاء إيران الذين تواطؤوا مـع الأميركيّين. وكان على الأجهزة نفسـها أن تديرَ تدخّلها في العراق من هذه المناطق، التي صـارت باحـةً خلفيّةً للمقاومين العراقيّين، البعثيّين والإسـلاميّين، واتّقدتْ فيها المشاعرُ ضدَّ الشـيعة، وامتدّت إلى حيث قَدِم متطوّعون سوريّون، من أرياف حلب وإدلب وسـواها؛ وعندما عاد هؤلاء، أو قسـمٌ منهم، شكّل كلٌّ منهم محورَ بتٍّ مستقلٍّ ضدّ الشيعة.
ورغم صـعود نجم حزب الله وأمينه العامّ في سـورية، ولاسيّما فـي حرب تمّوز ٢٠٠٦، فقد كان لموقفه من الثورة السـوريّة أثرٌ مدوٍّ أطاح شعبيّته بأسرع ممّا صعدتْ. وتنفّس مَن كانوا «يَعرفون حقيقةَ الشـيعة» الصـعداءَ: فها هي أعلامُ حزب الله تُحرق في المدن السـوريّة؛ وها هي إيران تُفرط في دعمها للنظام بشـكلٍ اسـتفزّ أكثرَ المعارضـين اعتدالًا؛ وها هم السـوريّون يشتمون حكومـةَ نوري المالكـي؛ وها هي القنواتُ السـوريّة المعارضـة مترعةٌ باتصالاتِ السنّة العرب، الذين يتضامنون مع «إخوانهم» السوريّين ضدّ العلويّين، «رأسِ حربة المشروع الصفويّ.»

ثالثًا ـ طائفيّة ذات مرجعيّة دينيّة، ويمكن التعبير عنها بالتقابل السنّيّ/«الرافضيّ». هـذه هـي الطائفيّة «الصـلبة» إذا صـحّ التعبير، وليسـت لها بيئاتٌ جغرافيّةٌ محدّدة بل بيئاتٌ ثقافيّةٌ خاصّـةٌ، هي البيئات السلفيّة. ولقد كان التضييق شديدًا على السلفيّين في سـورية طوال العقود الماضية، ولكنّ الأشهر الطويلة من عمر الثورة فتحت البلادَ المسوّرةَ برجال الأمن لكلّ أنواع التأثيرات، ومنها التيّار السلفيّ، فسارع إلى نثرِ بذرته التي أنبتتْ بسرعةٍ قياسيّة و«تعرعرتْ» (نسبةً إلى العرعور).
فالشـيخ عدنـان العرعـور هو أشـدُّ رجـال سـورية «الجديدة» إشكاليّةً؛ إذ يجمع بين سلفيّةٍ شعبيّةٍ ذات خطابٍ مبسّط، وحسٍّ عمليٍّ واضـح. وبيـن هذا وذاك تتنـاوب مواقفُـه الطائفيّة بين مدّ اليد لـ«العلويّين الشـرفاء» الذين يؤيّدون الثورة، وبين إدانةٍ مبدئيّةٍ للشـيعة والعلويّين نتيجةً لتمرّسـه في مسـاجلة الأولين عبـر مناظراتٍ تلفزيونيّةٍ، ونتيجةً لمعايشـته البعدَ الطائفيَّ في أحداث الثمانينيّات السـوريّة، ولاسـيّما في مدينته حماة، التي تعرّضتْ لأشدّ أنواع القمع الدمويّ عام ١٩٨٢.
وللعرعـور شـعبيّةٌ واسـعةٌ فـي أوسـاط الثـورة، رغم أنّـه يثير أشـدَّ أنواع النفور عند عددٍ من سياسـيّي المعارضـة ومثقفيها وناشـطين في حراكها العلمانيّ والمدنيّ. ولـم يخفّفْ من هذه الشـعبيّة سوى انتقال جمهوره من القول إلى الفعل، وانشدادِهم إلى نموذج يمارس أمامهم ما يكتفي الشـيخُ التلفزيونيّ بالحضّ عليـه: نموذج القائـد والمقاتل الميدانيّ، ولاسـيّما الذي يجمع بين التديّن والشراسة في قتال النظام؛ نموذج «المجاهد.»
يعنينـا هنـا مـن المقاتلين الكثر تجمّعاتٌ تفصـح عـن هويّتها السـلفيّة، أبرزهـا «جبهة النصـرة،» وهي الأقـرب إلى تنظيم القاعـدة في نسـخته العراقيّة التـي عرفتْ تركيـزًا كبيرًا على الجانب الطائفيّ (بخلاف التنظيم الأمّ الذي نظر إلى الصراع وفق سلّم أولويّاتٍ مختلفٍ). تنتشر الجبهةُ في عدة مدن سورية. ورغم قلّة أفرادها قياسًـا إلى إجماليّ المقاتلين، فإنّ عمليّاتها الموجعة ضدّ النظام أورثتْها مكانةَ النخبة بين المقاتلين، الأمر الذي قد يرشّـح هذه الجبهةَ للتنامي، أو للتأثير في سـواها من التجمّعات، كحال «كتائب أحرار الشام.»(٥)

(٤) وهو المصطلح الذي ابتدعه ثائرون مسلّحون سنّة، في مقابل مصطلح الشبّيحة.
(٥) http://www.ahraralsham.com/.

ـ المسألة الطائفية في سوريا ـ

انشقاقٍ جديٌّ في الطائفة العلويّة... لا يزال يبدو الحلّ الوحيد لتجنّب حربٍ أهليّةٍ لا تبقي ولا تذر.

وتحمل أفكارَ السلفيّة جماعاتٌ أخرى، مثل «لواء الإسلام» الذي ينتشر في دمشق وريفها. أسّسه الشيخ زهران علّوش، المتحدّر من عائلةٍ سلفيّةٍ في مدينة دوما التي كانت من أبكر مواطن الاحتجاجات. ولهذا اللواء لجنةٌ شرعيّةٌ تتلقّى الاستفسارات عن شؤون القتال الدائر، عبر صفحتها على الفايسبوك.[٦] وقد أثارت فتواها بجواز استهدافِ نساء الخصوم وأولادهم، إذا لم يمكن الوصول إلى خصومهم إلّا معهم، مخاوفَ واسعةً.

❖ ❖ ❖

من الواضح أنّ هذه الأنماط الثلاثة من الخطاب الطائفيّ متداخلةٌ ومترافدةٌ الآن في مزيجٍ انفجاريّ. غير أنّ التمييزَ بينها وعزلها ربما كانا الطريقَ الوحيد إلى الحلّ، الذي يبدو الآن شديدَ الصعوبة أو شبه مستحيل. فإذا كان منطلق النمطين الأوّليْن سياسيًّا، فإنّ أداءً سياسيًّا ما يمكنه تطويقُهما أو التخفيفُ منهما، مثل انشقاقٍ جديٍّ في الطائفة العلويّة بالنسبة إلى النمط الأول ـ وهو حلمُ المعارضين السوريّين منذ قيام الثورة. ورغم أنّ هذا الحلّ يزداد بُعدًا بارتفاع فاتورة الدم والوالغين فيه، فإنّه لا يزال يبدو الحلَّ الوحيد لتجنّب حربٍ أهليّةٍ لا تبقي ولا تذر.

ومن شأن موقفٍ جادٍّ تتخذه قطاعاتٌ شيعيّةٌ واسعةٌ في تأييد الثورة السوريّة أن يفكّك النمطَ الثاني من الطائفيّة الذي بات يَنظر إلى الشيعة ككتلةٍ صلدةٍ واحدةٍ معادية. هذا رغم أصواتٍ قليلةٍ لبعض رموز الشيعة، وصل أحدُها، وهو المرجع الدينيُّ العراقيُّ آية الله السيد محمود الصرخي، إلى حدّ التصريح بأنّ هتاف المتظاهرين السوريّين «الموت ولا المذلّة» هو تجسيدٌ واقعيٌّ حيٌّ لشعار الإمام الحسين في كربلاء «هيهات منّا الذلّة.»[٧] ولكن هذه الأصوات ظلّت قليلةَ التأثير في الشارع الشيعيّ العريض، ولاسيّما أنّها جاءت من رجال دينٍ عرب هم على خلافٍ أصليٍّ مع مرجعيّة قم وإيران وامتداداتها الإقليميّة. وهنا تقع مسؤوليّةٌ تاريخيّةٌ على عاتق المعارضة الإصلاحيّة الإيرانيّة، التي ظلّت مواقفُها خافتةً في هذه المسألة، وهي تَرْقب تعرّض السوريّين للعنفِ المنفلت من عقاله بدعمٍ من الحكومة، التي اضطهدتهم عام ٢٠٠٩ وتهدّد الآن بجرّ بلدهم وراء النظام السوريّ إلى حربٍ إقليميّة.

أما النمط الثالث من الطائفيّة، فلا «حلّ» جديًّا له إلا بتوقّف السياسة عن مدّه بالأدلّة على صدق رؤيته. أي إنّ الحلولَ المطلوبة لأجل النمطين السابقين ستخفّف من المصداقيّة المتصاعدةِ التي بات يحظى بها هذا الخطابُ. وفي حال توافر الحلول السياسيّة التي ستنزع فتيلَ الانفجار، فإنّ الذين سيظلّون مقتنعين بهذا الخطاب يجب أن يُحال بينهم وبين أن يتحوّلوا إلى الفعل، فلا يتعدّوا على الأرواح أو الممتلكات، بل أن يبقوا ضمن حدود القانون في سوريا الجديدة (؟)، التي يجب أن تتعايش مع وجودهم كما تتعايش المجتمعاتُ المعاصرةُ ما بعد الحديثة مع نزوعاتٍ مماثلة.

دمشق

حسام جزماتي
كاتب سوريّ.

(٦) https://www.facebook.com/liwaaislamlejnaelmia.

(٧) http://www.al-hasany.net/News_Details.php?ID=2802.